ابراهيم الخواص

مواقف ومواعظ
من حياة التابعين

[12]

إبراهيم الحواص

إبراهيم الخواص

هو: إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل الخواص.

يكنى: أبا إسحاق.

أصله: من سر من رأى - قرية من قرى الري بأرض العراق - وأقام بالري.

الذي جاء بك عرف بيني وبينك:

قال إبراهيم الخواص:

سلكت البادية ستة عشر طريقًا على غير الجادة، فلعجب ما رأيت فيها رجل ليس له يدان ولا رجلان، وعليه من البلاء أمر عظيم، وهو يزحف زحفًا، فتحيَّرت منه، وسلمت عليه فقال لي:

- وعليك السلام يا إبراهيم.

فقلت له:

- بم عرفتني ولم ترني قبلها؟

قال الرجل:

- **الذي جاء بك عرف بيني وبينك.**

فقلت:

- صدقت.

ثم سألته:

- إلى أين تريد؟

قال الرجل:

- إلى مكة.

قلت:

- ومن أين أنت؟

قال الرجل:

- من بخارى.

فبقيت متعجبًا وأنا أنظر إليه.

فنظر إلى شزرًا وقال:

- يا إبراهيم: تعجب من قوى يحمل ضعيفًا ويرفق به؟

ثم دمعت عيناه وأرسل الدموع.

فقلت:

- لا يا حبيبي.

وتركته على حالي ومضيت إلى مكة.

فلما دخلت البيت الحرام، رأيته يطوف حول الكعبة وهو يزحف زحفًا.

أعجب ما رأيت في البادية:

كان محمد بن زياد المقيم بكلواذ ي حريصًا على مجلس إبراهيم الخواص، وكان قد بكى حتى ذهبت عيناه، سأل إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل الخواص يومًا:

- ما أعجب ما رأيت في البادية يا أبا إسحاق؟

قال إبراهيم الخواص:

كنت ليلة من الليالى في البادية فنمت على حجر فإذا أنا بشيطان قد جاء وقال:

- قم من ها هنا.

فقلت:

- اذهب.

فقال الشيطان:

- أرفسك رفسة فتهلك.

فقلت في غير مبالاة:

- افعل ما شئت.

فرفسني، فوقعت رجله عليَّ كأنها خرقة.

فقال الشيطان:

- أنت ولى الله، من أنت؟

قلت:

- أنا إبراهيم الخواص.

قال الشيطان:

- صدقت.

ثم قال:

- يا إبراهيم: معي حلال وحرام.

فقلت:

- أين الحلال؟

قال الشيطان:

- ها هو رمان من الجبل المباح.

ثم سكت ونظر إليَّ وقال:

لم تسألني عن الحرام؟ ها هو حوت مررت على صيادين وهما يصطادان فتخاونا، **فأخذت الخيانة**.

ثم قدم إلى الرمان وقال:

فكل أنت الحلال ودع الحرام.

لا تغتمى فإني الذي كنت أعمل ذلك:

كان لإبراهيم بن أحمد بن إسماعيل الخواص وقت فترة - استراحة - كل يوم، فكان يخرج إلى شط نهر كبير كان حواليه الخوص، وكان أثناء تلك الفترة يقطع شيئًا من الخوص وينسجه قِفافًا - مفرد قفة - ثم يطرحها في ذلك النهر، كان يتسلى بذلك وكأنه مطالب به، وظل على ذلك أيامًا كثيرة.

وذات يوم فكر أبو إسحاق أن يمضى خلف ما يطرحه من قفاف في الماء لينظر أين تذهب هذه القفاف؟

مضى إبراهيم الخواص على شاطئ النهر ساعات، ولم يعمل قفافًا في ذلك اليوم، **فوجد عجوزًا قاعدة على شاطئ النهر وهي تبكي** فسألها:

- مالك تبكين؟

قالت العجور:

- خمسة من الأيتام مات أبوهم، فأصابني الفقر والشدة، فأتيت يومًا هذا الموضع، فجاء على رأس الماء قفاف من الخوص فأخذتها وبعتها وأنفقت عليهم، وأتيت اليوم الثاني والثالث والقفاف تجيء على رأس الماء فكنت آخذها وأبيعها، واليوم ما جاءت.

يقول إبراهيم الخواص:

فرفعت يدي إلى السماء وقلت:

- اللهم لو علمت أن لها خمسة من العيال لزدت في العمل.

ثم قال أبو إسحاق للعجور:

- لا تغتمّى فإني الذي كنت أعمل ذلك.

ومضى إبراهيم الخواص مع العجور الفقير، فقام بأمرها وبأمر عيالها اليتامى سنين.

مع الله:

يقول حامد الأسود:

كنت مع إبراهيم الخواص في سفر فدخلنا إلى بعض الغياض، فلما أدركنا الليل ؛ إذ بالسباع قد أحاطت بنا، فجزعت لرؤيتها وصعدت إلى شجرة ثم نظرت إلى أبى إسحاق، وقد استلقى على قفاه فأقبلت السباع تلحسه من قرنه إلى قدميه وهو لا يتحرك ولا يلقي لها بالاً.

ثم أصبحنا وخرجنا إلى منزل آخر وبتنا في مسجد، فرأيت بَقَّةً - حشرة صغيرة - وقعت على وجه إبراهيم الخواص فلسعته فقال:

- أخ.

فقلت:

- يا أبا إسحاق أي شيء هذا النُّوّه؟ أين أنت من البارحة؟

قال إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل الخواص:

- ذاك حال كنت فيه بالله، وهذا حال أنا فيه بنفسي.

اشتريت هذه الجلسة مع الهه عز وجل:

بينما كان أبو إسحاق **يطوف حول الكعبة**، رأى شابًا مئتزرًا بعباءة، متشحًا بأخرى كثير الطواف والصلاة، فوقع في قلب إبراهيم الخواص محبته.

رزق الرزاق أبا إسحاق بأربعمائة درهم فحملها وانطلق إلى ذلك الشاب فوجده جالسًا خلف مقام إبراهيم - عليه السلام - فوضع أبو إسحاق المال على طرف عباءة الشاب، وقال له:

- يا أخي: اصرف هذه القطيعات في بعض حوائجك.

فقام الشاب وحمل الدراهم، وبددها في الحصا وقال:

- يا إبراهيم اشتريت هذه الجلسة من الله تعالى بسبعين ألف دينار عين - العين: الذهب المضروب خلا ف الوَرِق: الفضة -، تربد أن تخدعني عن الله عز وجل بهذا الوسخ؟

يقول إبراهيم الخواص:

- فما رأيت أعز منه وهو ينظر، وأذلّ مني وأنا أجمعها من بين الحصى.

ثم قام الشاب ومضى.

دواء القلب:

قال إبراهيم الخواص:

دواء القلب خمسة أشياء:

قراءة القرآن بالتدبر.

وخلاء البطن.

وقيام الليل.

والتضرع عند السحر.

ومجالسة الصالحين.

الكلب:

كان أبو إسحاق جالسًا في مسجد الر ي وعنده جماعة ؛ إذ سمع ملاه ي - ملاه - من الجيران، فاضطرب من ذلك من كان في المسجد وقالوا:

- يا أبا إسحاق: ما ترى؟

فخرج إبراهيم الخواص من المسجد نحو الدار التي فيها الغناء والمنكر، فلما بلغ طرف الزقاق، إذ كلب رابض، فلما دنا أبو إسحاق

منه نبح عليه وقام في وجهه.

فرجع إبراهيم الخواص إلى المسجد، وتفكر ساعة، ثم قام مبادرً ا، وخرج فمرَّ على الكلب فبصبص الكلب - حرك ذنبه أي: ذيله - له.

ولما قرب أبو إسحاق من باب الدار خرج إليه شاب حسن الوجه وقال:

- أيها الشيخ: لم انزعجت؟ كنت وجهت ببعض من عندك ف أبلغ لك كل ما تريد، وعلى عهد الله وميثاقه لاشربت أبدًا.

وكسر الشاب جميع ما كان عنده من الشراب وآلات الطرب.

وصار الشاب يحضر مجلس أبـي إسحاق، وصحب أهل الخير، ولزم العبادة.

ورجع إبراهيم الخواص إلى مسجده، فلما جلس سئل عن خروجه في أول مرة ورجوعه، ثم خروجه في الثانية وما كان من أمر الكلب.

فقال أبو إسحاق:

- نعم، إنما نبح عليَّ الكلب **لفساد كان قد دخل عليَّ في عقد بيني وبين الله** لم أنتبه له في الوقت، فلما رجعت إلى الموضع ذكرته، فاستغفرت الله عز وجل منه، ثم خرجت الثانية فكان ما رأيتم، وهكذا كل من خرج لإزالة منكر فتحرك عليه شيء من المخلوقات فلفساد عقد بينه وبين الله عز وجل، فإذا وقع الأمر على الصحه لم يتحرك عليه شيء.

اليهودي:

ركب إبراهيم الخواص يومًا البحر وكان معه في المركب يهودي، فسألَه أيامًا كثيرة فلم يره يذوق شيئًا من طعام أو شراب، ولا يتحرك ولا ينزعج من مكانه، ولا يتطهر ولا يشتغل بشيء وكان ملقًا بعباء ة مطروح في زاوية، ولا يفاتح أحدً ا ولا ينطق، فاقترب أبو

إسحاق منه وسأله وكلَّمه فوجده مجردًا متوكلاً يتكلم فيه بأحسن الكلام ويأتي بأكمل بيان.

ولما أنس اليهودي بإبراهيم الخواص وسكن إليه قال له:

- يا أبا إسحاق: إن كنت صادقًا فيما ت دَّعيه، فالبحر بيننا حتى نعبر إلى الساحل - وكان في اللجاج: هياج الأمواج -.

فقال إبراهيم الخواص:

- وا ذلاه إن تاخرت عن هذا الكافر.

فقال إبراهيم الخواص لليهودي:

- قم بنا.

فما كان بأسرع بأن زج اليهودي بنفسه في البحر.

ورمى أبو إسحاق بنفسه في البحر خلف اليهودي.

وعبر اليهودي وإبراهيم الخواص إلى الساحل.

فلما خرجا من الماء قال اليهودي:

- يا إبراهيم نصطحب على شريطة ألا ن أوى المساجد ولا البيع ولا الكنائس ولا العمران فنعرف.

قال إبراهيم الخواص:

- لك ذلك.

وانطلقا إلى مدين ة فأقاما على مزبلة ثلاثة أيام، فلما كان يوم الثالث **أتى اليهودي كلب في فمه رغيفان فطرحهما أمامه وانصرف.**

فأكل اليهودي الرغيفين ولم يقل لأبى إسحاق شيئًا.

وأتى إبراهيم الخواص شاب نظيف حسن الوجه والبزة، طيب **الرائحة، ومعه طعام نظيف في منديل فوضعه بين يديه وقال له:**

- كُل.

وغاب الشاب عن أبي إسحاق فلم ير له أثرًا.

فقال إبراهيم الخواص لليهودى:

- هلم.

فلبى ثم نطق بشهادة الحق وقال لإبراهيم الخواص:

- يا إبراهيم: أصلنا صحيح إلا أن الذي لكم - أي دينكم - أحس وأصلح وأظرف.

وحَسُنَ إسلام اليهودي وصار أحد أصحاب أبي إسحاق الصالحين.

أخوك رضوان يقرئك السلام:

ذات يوم كان أبو إسحاق في الطريق إلى مكة فعط ش عطشًا شديدًا بالحاجز - **الحاجز:** الحائل بين الشيئين، وهو: منزل للحجاج في البادية - فسقط من شده العطش، فإذا بماء سقط على وجهه وجد برده على فؤاده، ففتح عينيه فإذا هو برجل ما رأى أحسن منه قط على فرس أشهب عليه ثياب خضر وعمامة صفراء وبيده قدح من ذهب أو من جوهر فسقاه منه شربة وقال لإبراهيم الخواص:

- ارتدف - اركب - خلفي.

فركب أبو إسحاق خلفه، فلم يبرح من مكانه حتى س ألى إبراهيم الخواص:

- ما ترى؟

قال أبو إسحاق:

أرى مدينة رسول الله ﷺ.

فقال الرجل:

- انزل واقرأ على رسول الله ﷺ السلام، وقل له أخوك رضوان يقرأ عليك السلام.

ما هذا التأوه؟

ذات يوم كان أبو إسحاق جالسًا بين أصحابه في مسجد الر ي، فتأوَّه فسرأله أصحابه:

- يا أبا إسحاق: ما هذا التأوّه؟

قال إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل الخواص:

- أوه كيف يفلح من يسره ما يضره؟!

ثم أنشأ يقول:

تعودت مس الضر حتى ألفته :: وآحوجن ي طول البلاء إلى الصبر
وقطعت أيامى من الناس آيسًا :: لعلمي بصنع الله من حيث لا أدري

رجلٌ يمشي على الماء:

نزل إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل الخواص يومًا إلى مشرعة - المشرعة: مورد الشاربة - الساج - شجر - من بغداد وكانت الريح تلعب بالموج، فرأى رج لاً بين الموج يمشي على الماء فسجد أبو إسحاق وجعل بينه وبين السميع البصير أن لا يرفع رأسه من سجوده حتى يعلم مَن الرجل؟

فلم يطل إبراهيم الخواص في سجوده حتى أح سَّ بيد تمس كتفه، والرجل يقول له:

- قُم ولا تعاود، فلنا إبراهيم بن على الخرسانى الهروي.

إنه القبر الذي رأيت في منامي:

قال إبراهيم الخواص:

كان رجل من الزهَّاد ممن يسيح في الجبال لم تكن له همَّة في شيء من الدنيا ولا لذَّة إلا لقياهم: الأبدال والزهاد.

وبينما هو ذات يوم على ساحل من سواحل البحر ليس يسكنه الناس ولا ترقى إليه السفن ؛ إذا هو برجل قد خرج من تلك الجبال، فلما رآه، هرب وجعل يسعى فاتبعه يسعى خلفه فسقط على وجهه وأدركه فقال له:

- ممن تهرب رحمك الله؟

فلم يكلمه فقال:

- إنى أريد الخير فعلمني.

قال:

- عليك بلزوم الحق حيث كنت، فوالله ما أنا بحامد لنفسي فأدعوك إلى مثل عملها.

ثم صاح صيحه فسقط ميتًا.

فمكث الرجل لا يدرى كيف يصنع به؟

وهجم الليل عليهما، فتنحى الرجل ونام في ناحية عنه، فرأى في منامه أربعة نفر هبطوا عليه من السماء على خيل فحفروا له وكفنوه وصلوا عليه ثم دفنوه.

فاستيقظ الرجل فزعًا للذى رأى.

وذهبت عنه سِنَة النوم - شدة النوم وثقله - بقية الليل.

فلما شرق الصبح عباءة الظلام بسيفه، انطلق إلى موضع الرجل الميت، فلم يره فيه، فما زال يطلب أثره وينظر حتى رأى قبرًا جديدًا.

إنه كان كالقبر الذي رآه في منامه.

أخوك الخضر يسلم عليك:

رجع إبراهيم بن الخواص من مكة، فما لقيه خير النساج سأله:

- يا أبا إسحاق: ما الذي أصابك في سفرك؟

قال أبو إسحاق:

- عطشت عطشا شديدًا حتى سقطت من شدة العطس، إذا أنا بماء قد رش على وجهي، فلما أحسست ببرده فتحت عيني فإذا برجل حسن الوجه والزى وعليه ثياب خضر على فرس أشهب فسقاني حتى رويت.

ثم قال:

- ارتدف خلفي.

وكنت بالحاجز - منزل للحجاج بالبادية - فلما كان بعد ساعة سألني:

- أي شيء ترى؟

قلت:

- المدينة.

فقال:

- انزل واقرأ على رسول الله ﷺ مني السلام، وقل: أخوك الخضر يسلم عليك.

اشرب هذا:

قال أبو بكر الحربي لإبراهيم الخواص:

حدثني بأحسن شيء مَرَّ عليك؟

قال أبو إسحاق:

خرجت من مكة عن طريق الجادة، واعتقدت بيني وبين الله عز وجل ألا أذوق شيئًا أو أنظر إلى القادسية، فلما صرت بالربذة - مرضع على ثلاث من المدينة -؛ إذ أنا بـأعرابي يعدو وبيده سيف مسلول وبيده الأخرى قعب لبن فصاح بي:

- يا إنسان.

فلم ألتفت إليه.

فلحقني وقال لي:

- اشرب هذا وإلا ضربت عنقك.

فقلت:

- هذا شيء ليس لي فيه شيء.

فأخذت القعب وشربت اللبن، فوالله ما عارضن ي شيء بعد ذلك إلى أن بلغت القادسية.

الرزق ليس فيه توكل:

قال إبراهيم الخواص:

الرزق ليس فيه توكل، إنَّما فيه صبر حتى يأتي الله به في وقته الذي وعد، وإنَّما يقوى صبر العبد على قدر معرفته بما صبر أو لمن صبر.

والصبر ينال بالمعرفة، وعلى الصابر حمل م ؤونة الصبر حتى يستحق ثواب الصابرين؛ لأنَّ الله تعالى جعل الجزاء بعد الصبر، قال الله تعالى: {وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا} [سورة البقرة الآية: ١٢٤].

فالجزاء إنَّما وقع له بعد ما تم حمل البلوى.

الغني والفقير:

قال أبو إسحاق:

الفقير يعمل على الإخلاص وجلاء القلب وحضوره للعمل.

والغنى يعمل على ك ثوة الوساوس وتفرقة القلب في مواضع الاعتدال.

والفقير ضعف بدنه في العمل قوة معرفته وصحة توكله.

والفقير يعمل على إدراك حقيقة الإيمان وبلوغ ذروته.

والغنى يعمل على نقصان في إيمانه وضعف في معرفته.

والفقير يفتخر بالله عز وجل وبصول به.

والغنى يفتخر بالمال ويصول بالدنيا.

والفقير يذهب حيث شاء.

والغنى مقيد مع ماله.

والفقير يكره إقبال الدنيا.

والغنى يحب إقبالها.

والفقير فوق ما يقول.

والغنى دون ما يقول.

لا تطلق لسانك:

سمع إبراهيم الخواص عن رجل من العرب فهم وخير، فقصده فوجده في بعض البوادي وهو يسوي بعيرًا له.

فقال أبو إسحاق:

- قل لي كلامًا أحفظه عنك يرحمك الله.

قال الرجل:

- لا تطلق لسانك - انطلق لشأنك - فإن الفعل أولى بك من القول.

قال إبراهيم الخواص:

- رحمك الله، إن دليل العمل القول، ومفتاحه المعرفة.

فلعجب الرجل بقول أبي إسحاق، وأقبل عليه وقال:

- يا أخي: إن الشفقة لم تنزل بالمؤمن حتى أوفدته على خير حال، **وإن الغفلة لم تنزل بالفاجر حتى أسلمته إلى شر حال، وما خير عمر امرئ لا يدري ما عاقبة أمره؟ وما خير ع يش لا يكمل ما حفظ منه؟** ولئن كانت الرغبه في الدنيا هي المسئولة عن قلوبنا كما استولت على أبداننا لقد خبنا غدًا في القيامة وخسرنا.

من أقوال إبراهيم الخواص:

* من لم يصبر لم يظفر، وإن لإبليس وثاقين وما أوثق بنو آدم بلوثق منهما: **خوف الفقر والطمع**.

* من أراد الله بذل له نفسه وأدناه من قربه، ومن أراده لنفسه أشبعه من جنانه وأرواه من رضوانه.

وقال:

عليل ليس يبرئه الدواء :: طويل الضر يفنيه الشفاء
سرائره بواد ليس تبدو :: خفيات إذا برح الخفاء

* من لم تبك عليه الدنيا لم تضحك الآخرة له.

* علم العبد بقرب قيام الله على العبد يوحشه من الخلق ويقيم له شاهد الإنس بالله، وعلم العبد بلن الخلق مسلطين م أمورين يزيل عنه خوفهم ويقيم في قلبه خوف المسلط لهم.

* على قدر إعزار المؤمن لأمر الله يلبسه الله من عزه ويقيم له العز في قلوب المؤمنين، فذلك قوله تعالى: {وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ} [سورة المنافقون الآية: ٨].

* عقوبة القلب أشد العقوبات، ومقامها أعلى المقامات، وكرامتها أفضل الكرامات، وذكرها أشرف الأذكار، وبذكرها تستجلب ا لأنوار عليها وقع الخطاب وهي المخصوصة بالتنبيه والعتاب.

* **العارف بالله يحمله الله بمعرفته، وسائر الناس تحملهم بطونهم**، ومن نظر الأشياء بعين الفناء كانت راحته في مفارقتها ولم يأخذ منها إلا لوقته.

* سلكت البادية إلى مكة سبعة عشر طريقًا، فيها طريق من ذهب، وطريق من فضة.

* أربع خصال عزيزة؟

عالم مستعمل لعلمه.

وعارف ينطق عن حقيقة فعله.

ورجل قائم لله بلا سبب.

ومريد ذاهب عن الطمع.

* الحكم تنزل من السماء فلا تسكن قلبًا فيه أربعه:

الركون إلى الدنيا.

وهم غد.

وحب الفضول.

وحسد أخ.

برح الخفاء وفي التلاقى راحة ⁝ هل يشتفى خل بغير خليله

* كل مريد يتوجه إلى الله وهموم الأرزاق قائمة في قلبه، فإنه لا يفلح ولا ينفذ في توجهه.

* علامة حقيقة المعرفه بالقلب، خلع الحول والقوة وترك التملك مع الله في شيء من ملكه، ودوام حضور القلب بالحياء من الله وشدة انكسار القلب من هيبة الله، فهذه الأحوال دلائل المعارف والحقيقة، فمن لم يكن على هذه الأحوال، فإنَّما هو على الأسماء والصفات.

التوكل على ثلاث درجات:

على الصبر.

والرضى.

والمحبة.

لأنه إذا توكل وجب عليه أن يصبر على توكله لمن توكَّل عليه.

وإذا صبر وجب عليه أن يرضى بجميع ما حكم عليه.

وإذا رضى وجب عليه أن يكون محبًا لكل ما فعل به موافقة له.

وفاته:

مرض إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل الخواص بالري في مسجد الجامع وكان به علة القيام - لا يستطيع الجلوس - وكان إذا قام يدخل الكنيف - المرحاض - ويغتسل ويعود إلى المسجد فيركع ركعتين.

وتوفى بمسجد الري سنة إحدى وتسعين ومائتين.

وقيل:

سنة أربع وتسعين ومائتين.

وتولى أمره في غسله ودفنه: يوسف بن الحسين الرازى.

* * *